معادلة الحياة والموت

موضوعا شعريا

م . م . ليلى عبد الحميد الهنداوي

تدريسية/ معهد إعداد المعلمات البياع/ الكرخ الثانية

لا ريب أن آية الحياة والموت، شكلتا جزءاً كبيراً من وجود الإنسان . إن لم نقل جميعه . واحتل القلق والحيرة ذهنه، وهو يواكب هذه الديمومة الحياتية الرتيبة مابين الحياة ومتطلباتها وبين سطوة الموت، الذي هو نقيض الحياة، لما يكتنفه من غرابة تثير العجب في النفس البشرية، ويبقى سر الحياة والموت لصيقاً بقلوب البشر، له تأثير مباشر في النفوس، ومنذ أقدم العصور، ويبدو هذا السر ظاهرة بارزة ومكررة في كل ما يقع عليه حس الإنسان، الإنسان الذي ينزع نزوعاً أبدياً إلى الحياة، فهو كائن مجبول فطرياً على حب الحياة وإلى أن يمارسها بكل امتلاء وحيوية، وأن يحياها بلا انقطاع أو عراقيل.

فيما روي عن الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" قوله ﴿ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو يتمنى يوم القيامة أنه لم يعط من الدنيا إلا قوتاً﴾ (١). وما هذه الأمنية أمام حب الحياة والتعلق بها بعد أن غدا الموت الحقيقة الكبرى في الحياة ؟ وهنا تتباين وجهات النظر ويبدأ الصراع الفكري للإنسان، الذي قد يفضي به إلى الإيمان المطلق بالحياة والموت عقائدياً، أو قد يفضي به إلى القلق من منطلق الحرص على الحياة والخوف من الموت بعيداً عن أي اعتبار عقائدي.

ووقف الشعراء . كدأبهم . يصورون قضايا الدنيا الكثيرة، وحازت مشكلة الحياة والموت حيزاً كبيراً من تأملاتهم في فنهم: فن الشعر، (ولاشك أن الشعر من أقدر الأنواع الأدبية على تصوير التجربة الإنسانية في مواجهة الكون والحياة)[٢]، فن التعبير عن فهم الإنسان للكون وما يتصل به من خلال النفس والوجدان، للتعبير عن الألم والأمل، بما يحويانه من عمق وترقب لكل دقائق الحياة.

وبما أن الحياة العربية قامت قبل الإسلام على نظام القبيلة، فقد اقتضى هذا النظام القبلي أن يكون الشاعر مسجلاً لمآثر قومه، قال ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ): (كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها.... لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم)[٣]، والعرب تنشد الشعر للغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، ودليل ذلك قول أبي تمام:[٤]

ولولا خِلال سَنَّها الشعرُ ما درى بُغاةُ الندى مِنْ أينَ تؤتى المكارمُ؟

ولا يفوتنا القول أيضاً، إن الشعر يُعَدُّ من أشرف الكلام عند العرب وأقدسه كما قال ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ): (اعلمْ أنَّ الشعرَ من بين الكلام كان شريفاً عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم)[٥].

وفي صحرائه كان الإنسان الجاهلي أمام الموت وجهاً لوجه، فالعمر والحياة كنز ناقص، والموت إذا أغفل بعض الناس فطال عمرهم فهم لا يخرجون عن قدرته وسلطانه، ولا مناص للمرء من الموت، يصور طرفة بن العبد ذلك بقوله:[٦]

أرى العيشَ كنزاً ناقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وما تنقصُ الأيامُ والدَّهرُ يَنْفَدِ

لَعمرُكَ إنَّ الموتَ، مأ أخطأَ الفتى، لكالطِّوَلِ المُرْخى وثنياهُ باليدِ

متى ما يشأ يوماً يقدهُ لحَتْفِهِ وَمنْ يكُ في حبلِ المنيَةِ ينقدِ

فالموت إذن نهاية يرقبها الإنسان كل يوم، وهو لغز غامض لا يدري الإنسان ما وراء هذا المجهول.

وحدد طرفة ثلاث خلال من صفات الفتى الكريم، ولا يبالي بعدهن متى يموت أو متى ييأس عواده من حياته يقول:(٧)

فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدك، لم أحفل متى قام عودي؟
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكري إذا نادى المضاف، محنباً كسيد الغضى، نبهته، المتورد
وتقصير يوم الدجن، والدَجن ُمعجب، ببهكنة تحت الطراف المعمد

وعلى رأي الدكتور احمد أمين، يبدو اعتقاد الشاعر بأن الحياة هي هذه الحياة ولاشيء وراءها، فليلتذ ما أمكن له ذلك(٨). وبتحديد طرفة لمسيرة الحياة كالأتي: الخمرة والكرُ(٩)، والاستمتاع بحبائبه. فمن البديهي أن تكون للشاعر الجاهلي أسباب تخلق له شاعريته، وأولها، الصحراء التي تغذي الخيال وتثير العاطفة والشعور وتلهم الناس بآيات الشاعرية وموهبتها، فضلاً عن مشاهدها المنوعة التي تستثير المشاعر والملكات. وتضاف إلى ذلك الأسرة والمجد والمعاناة النفسية الخاصة، التي تمد الشاعر بالعاطفة المتأججة المشتعلة، والملكة القوية الحادة. ومن الأسباب أيضاً رحلات الشاعر وخصومات قومه، وأخيراً فطرته وصفاته وخلقه، فحدة الذهن واضطرام الشعور وثوران العواطف والتهاب المشاعر، كل ذلك من أسباب الشعر وبواعثه في نفس الشاعر مما يحدد مواقفه من صراعه الدائم مع الحياة والموت، والشاعر الجاهلي متشائم في الغالب، وهو لا يتأمل الحياة ولا يبدي رأيه فيها إلا حين يدفعه إلى ذلك ما يصادفه من ألم وحزن، ومن تعرض لجوانب الحياة غير البهيجة وانعكس ذلك على صوره وتعبيراته (١٠).

لقد أبدع زهير بن أبي سلمى في قصيدة له قائلاً:(١١)

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر، أو يبد لهم ما بدا ليا

ويستمر في سرد (ما يبدو له في الحياة) بشكل واضح، لا غرابة فيه، إنه خطاب النفس في لحظة قناعات بعد تأمل وتمعن في ماهية الحياة ولا يبدو كلامه قيل على فلسفة ولا معرفة بمذاهب المتفلسفين القدماء وإنما هي خطرات لعقل ذكي قوي الملاحظة، يقول:

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدَهر فانيا

أراني إذا ما بتُّ بت على هوىً وأني إذا أصبحت أصبحت غاديا

إلى حفرة أهدى إليها مقيمة يحث إليها سائق من ورائيا

فالحياة لا خلود فيها ولكن الجبال خالدة، وهذا ما يزيد إحساس الشاعر بحدة المفارقة يقول:

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا

وهكذا يدور الموت دوراناً متصلاً عنيفاً في أشعار الجاهليين ينبيء عن تفكيرهم المستمر في معضلته، وخوفهم من ضرباته، وحين يفكرون في لقمان الذي عاش حياة طويلة بدت أبدية، يذكرون أن الموت أدركه في النهاية، كأنما هو في حبل المنية كما يقول طرفة، وكذا تفكيرهم في ذي القرنين، ومن هنا كانت لهم أساطيرهم التي تبحث في الموت والخلود، كما كانت لكل الشعوب القديمة مثل هذه الأساطير[١٢].

يقول زهير:[١٣]

الم تر أن الله اهلك تبعا واهلك لقمان بن عاد وعاديا

واهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون جبارا طغى والنجاشيا

ويمكن اختصار طريقتهم لفهم الحياة، من خلال أشعارهم التي حملت أفكارهم ومشاعرهم، وقد نحا طرفة بن العبد ومن يماثله منحى الانكباب على اللذات، في حين نحا عنترة بن شداد ومن يماثله منحىً يمجد

الفروسية والقتال، وبدا زهير بن أبي سلمى في منطقة الحياد بين الدعوة للقوة، ولكن بعيداً عن القتال، وإفساح المجال للخير وتحكيم العقل ولا انكباب على اللذات.

وأوجز الشاعر الجاهلي امرؤ القيس لذة الهروب من الموت في الشراب وقرن المتعة بمفهوم الفناء قائلاً:(١٤)

تمتع من الدّنيا فإنك فاني من النشوات والنساء الحسان

وتتسع غريزة المقاتلة عند الفرسان المقاتلين، وتتجسد قوة هذه الغريزة وتحكمها الشديد، فالفروسية موقف في الحياة، والفارس يدخل الحرب من أجل الحرب، لا من أجل الغنائم والأسلاب يقول عنترة:(١٥)

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم

إنه ينتصر على الموت، لا على فارس بعينه، ويشفي غليله منه، لأنه يرمز للموت الكريه، ومن خيلاء الفرسان، تبدو لهذا الفارس انتصارات على الموت، لا تقارن بانتصار واحد للموت على الفارس.

وهكذا تمضي حياة الفرسان، يسبقون الموت إلى نفوس الأبطال يقول تأبط شراً:(١٦)

إذا هزه في عظم قرن تهللت نوا جذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أمُ النجوم الشوابك

هذا الفارس يسبق الموت إلى نفس الأبطال، ويملؤه الإحساس بالنصر على الموت إلا أن الموت لا يحس بالهزيمة، بل هو جذلان، لأنَ روحاً قد سلتْ، فيضحك مكشراً عن أنياب غلاظ في أفواه عديدة... ولاعجب أن يكون الدافع لموقف الفارس هو عمق الإحساس بالموت، فيما يرى زهير

بن أبي سلمى ومن لف لفه أن استعجال الموت ليس له ما يبرره، هي رؤية جديدة حكيمة للحياة، وللسلم وفي ذلك يقول بلعاء بن قيس الكناني:(١٧)

ومهلاً عن الحرب التي لا أديمها صحيح ولا تنفك تأتي على سقم

دعاني يشب الحرب بيني وبينه فقلت له: لا، بل هلمَ إلى السلم

وإنه لموقف القوي الذي يؤثر الخير على الشر وهو يعلم أن الذي يفرُ من الموت لابد أن يلحقه الموت، فالموقف ليس موقف عجز وفرار، بل موقف القوي الذي يتبع سنة الحياة في عصر القوة.

ويفصل زهير موقفه:(١٨)

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولورام أسباب السماء بسلم

أما موقف الشاعر الجاهلي من الحياة، فهو الأكثر إثارة في غزله، فشعراء اللذات لا يخطر ببالهم الهم طويلاً، ومثالهم طرفة، يركب ناقته ليرحل وفي رحلته يودع كآبته يقول:(١٩)

وإني لأمضي الهمَ عند إحتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

ولكن الشعراء الحكماء يواصلون حياتهم وهم يخضعون تجاربهم الوجدانية للحكمة والاعتدال، مواجهة حكيمة للموقف بغير هروب. تتحرك انفعالات الشاعر بحسب مواقف الحبيبة، فهو قويٌ دائماً يقول زهير:(٢٠)

فصرم حبلها إذ صرَمته وعادي أن تلاقيها العداءُ

وتبقى المرأة بالنسبة للشاعر رمزاً للحياة واتصالها واستمرارها، وفي لقائها معنى الإقبال على الحياة وهذا ما يفضله الشعراء الفرسان وعلى رأسهم عنترة بن شداد، فالموقف في رأيه موقف حياة أو موت، سعي حثيث للفوز بقلب الحبيبة. كما تعود أن ينتصر على الموت ليحيا، والمرأةُ تعني الحياة عينها، يقول عنترة:(٢١)

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

الشاعر هنا يدفع الموت ويتعلق بالحياة، ينشد الانتصار في كلا الموقفين، فما زالت الحياة بنظره مجاهدة مستمرة، تمحو آثار الخور والخضوع والموت، وتجتمع بين يديه لذتان: النصر، والحياة.

وبمجيء الإسلام، وانتشار عبق النور المحمدي، وضحت الرؤية الشاملة للكون وأسراره، مما حدا إلى ارتقاء الإنسان في تفكيره وتأمَلاته لوضع أهداف وغايات سامية لحياة أفضل. ووصف المرزوقي (ت٤٢١هـ) زمن النبي ﷺ: (زمن الفصاحة والبيان، جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به وبأ شرفه، فتحدَاهم بالقرآن كلاماً منثوراً، لا شعراً منظوماً)[٢٢]. بينما وصف ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) العرب آنذاك بقوله: (انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا).[٢٣]

وكانت حكمة الله ﷻ بانقضاء هذه الحياة الدنيا للانتقال إلى حياة خالدة هي الباقية، يقول ﷻ: ﴿وما هذه الحياة الدُنيا إلا لهو ولعب وإن الدَار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [٢٤]، والشاعران الإسلامي والأموي عاشا تحت ظل فكرة القرآن فلم تعد الحياة لغزاً عندهما ومع ذلك ظل يشغلهما حب الحياة والبقاء فيها.

وأكدت دراسة عبد الرزاق خليفة أن عوالم الشهادة والجنة والنار هي الرؤية الجديدة التي كان للإسلام الفضل في ترسيخها، إذْ علم الشاعر الإسلامي أن الخلود الحق هو خلود الآخرة [٢٥]. قال ﷻ ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [٢٦].

ومن الحقائق الأساسية التي توصلت إليها دراسة عبد الرزاق خليفة هي أن قوة الهاجس الروحي وجدية البحث عن الخلود لدى شعراء صدر الإسلام وضعفه لدى معظم شعراء العصر الأموي عدا شعراء الخوارج، كان بسبب قلة خوض الشعراء الأمويين في مواقف جهادية تستدعي التأمَل الروحي[٢٧].

ومن الملاحظات التي وردت في دراسة الباحثة حميدة حسن حول الفكرة نفسها تقريباً قولها (لا نجد في الشعر الإسلامي والأموي حالات روحانية ووجدانية تظهر فيها التجربة الذاتية والواقع الخاص الذي يبعث في النفس حس الإنسان ومعاناته من الحياة وارتقابه الموت بجأش هادئ وسمت وقور إلاَ ما ندر...)[٢٨]، وعزت الباحثة ذلك إلى انتماء الشعراء إلى الدين انتماء تقليدياً، لا يلج إلى ضمائرهم بعمق مبادئه ولا يتوغل في أنفسهم بحرارة قيمه، ويمكن استثناء الخوارج وشعرائهم الذين مثلوا النزعة الزهدية[٢٩] التي بنيت عليها أفكارهم وتعمقت حولها آراؤهم في الحياة و الموت، وما اصدق قول قطري بن الفجاءة (ت ٧٧هـ):[٣٠]

فصبرا في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

ويبدو بيته مستقلا بنفسه، انعطف طرفاه كالحلقة، وكيف الشاعر المعنى بحيث يمكن أن تتضمنه هذه الحلقة فلا يزيد عليها، فإن وفق إلى ذلك، فقد أخرج البيت المنشود على رأي الدكتور عز الدين إسماعيل.[٣١] ومن النماذج الشعرية التي أوجز فيها شاعرها (الصلصال) القول في الحياة والموت والرؤية الإسلامية لهما بعد أن وعظهم الرسول محمد ﷺ موعظة حسنة، ينتفعون بها، وأحبَ قيس بن عاصم أن يخلد موعظته على شكل أبيات من الشعر يفتخرون بها ويدخرونها لتعليم أولادهم، فانبرى

(الصلصال) بديهاً في أبيات توافق في معانيها موعظته عليه الصلاة والسلام:[٣٢]

تجنب خليطاً من مقالك إنما قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولا بد بعد الموت من أن تعده ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
وان كنت مشغولاً بشيء فلا تكن بغير الذي يرضى به الله تشغل
ولنْ يصحب الإنسان من قبل موته ومن بعده إلاَ الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله يقيم قليلا" بينهم ثمَ يرحل'

بمثل هذا الخطاب الآمر، صنف الشاعر حياة المؤمن، وحدد سنة تصرفاته التي ستكون رفده خلال رحلة العمر وعند رحيله وما بعد موته: إنه شعر وعظي توجيهي، أخذ معانيه من موعظة الرسول محمد ﷺ في حين جاء لفظه سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة كما جاء في نقد الشعر لقدامة بن جعفر[٣٣].

ويبدو التواصل الفكري بين الموروث الشعري الجاهلي الذي يضمُ خلاصة تفكير الشعراء بالحياة وبين النظرة الإسلامية التي ركزت الأيمان واليقين بالحياة الخالدة الأزلية. وما الحياة الخالدة الأزلية بالطريق السهل، ولكنَ اقصر الطرق إليها هي تقوى الله، في ذلك يقول الشاعر سابق البربري:[٣٤]

موت التقيِ حياة لا انقطاع لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء'

وقد احتلت لوحة الحياة والموت مكانةً في القصيدة الإسلامية والأموية فجاءت إما منفردة أو صيغة من صيغ الافتتاح أو خاتمة القصيدة[٣٥].

ويلاحظ على المقدمة المنفردة كثرتها، فلا يكاد يخلو منها ديوان شاعر إسلامي أو أموي.

وهذه أبيات تمثل مقدمةً فنية عند الشاعر النابغة الجعدي[٣٦]:

شيخ كبير قد تخدد لحمه أفنى ثلاث عمائم ألوانا

سوداء داجية وسحق مفوف ودروس مخلقة تبوح هجانا

ثم المنية بعد ذلك كله وكأنما يعنى بذاك سوانا

تفصح الأبيات عن نفسية الشاعر الذي هزل وبانت الأيام على جسده فهو يعيش غريباً، قلقاً، ويبدو ذلك واضحاً من ألفاظه التي جاءت مناسبة لحالة ضعفه وهرمه.

ويكتب لقصائد الرثاء الخلود حين تفيض أبياتها بالمشاعر الإنسانية الصادقة، تسبح ببحر من المشاعر الإسلامية التي تقطر رقةً وعذوبةً، إنها العاطفة الجياشة، ترعاها مشاعر الإيمان والإسلام. ووصلت إلينا قصائد رائعة من هذا الرثاء، منها قصيدة الشاعر مالك بن الريب التميمي الذي مرض في أرض الفرس وهو في جيش المسلمين، وأحسَ بالموت، وجاءت قصيدته رثاء" لنفسه وهي من غرر الشعر العربي في ثمانية وخمسين بيتاً. برزت مشاعره مملوءةً باحساسات شتى، معبرةً عن الغربة والبعد عن الوطن (الصحراء)، حوله جنود الحق يحملون لواء الإسلام، لنشر الدين الحنيف، يقاتلون ويجاهدون في سبيل الله والغاية وجهه الكريم، وفي داخله أزمته النفسية بين غربة الحضارة الجديدة والبيئات المختلفة وتمسكه وشوقه بحضارته القديمة يقول فيها:[٣٧]

ألا ليت شعري هل أ بيتنَ ليلةً بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا

يبدأ إبداع الشاعر في تصوير لحظات الموت الأخيرة، وينقل بصدق صورةً، تصوره وماحو له، وما تفيض به نفسه وهو يعاني سكرة الموت ويحسُ قرب نهايته يقول محاوراً نفسه ومن حوله:

ولما تراءت عند مرو منيتي وخلَ بها جسمي وحانتْ وفاتيا

أقول لأصحابي ارفعوني فإنه يقرُ بعيني أنْ سهيل بدا ليا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا برابية إني مقيم لياليا
أقيما علي اليوم او بعض ليلة ولا تعجلاني قد تبين شانيا
وقوما اذا ما استلَ روحي فهيئا لي السدر والأكفان عند فنائيا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي وردا على عيني فضل ردائيا
خذاني فجراني بثوبي اليكما فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

ويستمر في قصيدته معبراً عن غربته الموحشة وشوقه إلى بيئته الصحراوية وأهله. والقارئ لقصيدته لا يحس به شاكياً، متذمراً، بل قانعاً، متحكماً بأفكاره الحزينة المؤلمة وصوره الموحية، يغالبه شوقه وتنطقه غربته. وما اشدَ تمسك الإنسان بأن يدفن في أرضه!، وما اشدَ شوقه لملاعب صباه ومراعي ظعنه! يقول:

غريب بعيد الدار ثاو بقفرة يد الدهر معروفاً بأن لا تدانيا
أقلب طرفي حول رحلي فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا

هذه الصور تمثل تجربة وجدانية عميقة استبدت بالشاعر ودفعته لبث معاناته الموضوعية والنفسية طوال القصيدة. ويتبادر إلى الذهن قول (كارلتون كون) عن العاطفة والأيمان (والعاطفة والأيمان أداتان أساسيتان في بناء المجتمع، وارفع الفنون وأصح الفلسفات قد أنتجها رجال عاطفيون يؤمنون بالمثل العليا)[٣٨]، ومتى ما اجتمعت العاطفة والإيمان فإنهما قوة ضاربة في عالم الشعر يعبران عن الصدق والحقيقة. وقد قال الحذاق: خير الكلام الحقائق، فإنْ لم يكن فما قاربها وناسبها[٣٩].

وأما الشاعر العباسي فقد وقف يحمل ثقافته وشاعريته ليشارك البشرية قلقها الدائم إزاء الحياة، ففي اللحظة نفسها التي تبدأ فيها الحياة، يبدأ

الفناء يعد عداً تنازلياً عبر الزمن الحائر الذي نطلق علية اسم (العمر)، فالغد يصبح اليوم، واليوم يمسي مصاحباً لهاجس اسمه (الموت)، وهكذا تتكرر (حكاية الأيام) مع رحلة الحياة القصيرة، وبرأينا المتواضع لو تدارك الإنسان الأمر ونظر إلى الحياة من خلال (التاريخ)، ويبدأ من تباشيره الأولى.. وانتهاءً بلحظة النظر والتأمل، في تلك اللحظة الحاسمة بالذات . سيجد الحياة طويلة وطويلة بحوادثها ومفارقاتها وتناقضاتها.

ولكن الشعراء العباسيين . عموماً أسرفوا في الحديث عن قصر الحياة وسرعة انقضاء أيامها، وعبرتْ أشعارهم بأمانة عن طبيعة المجتمع العباسي وما فيه من متناقضات، وأفاضت الدراسة الموسومة (الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين)[٤٠] في تحديد الملامح البارزة لرؤى الشعراء الفكرية ما بين حياة الملذات وتحدي الموت بكأس مترعة ومجالس لهو وأنس، وبين زهد في الحياة ونعي دائم لحياة لا تدوم.

ومن خلال الظروف الطارئة المؤثرة بدا موقف بعض الشعراء العباسيين يغلب عليه التردد والاضطراب حتى إن نظرتهم للحياة والموت لم تكن عميقة الجذور تنبع من فلسفة المتأمل المفكرِ.

قال بشار بن برد (ت١٦٧هـ):[٤١]

فبتْ خائفاً للموت أو غير خائف على كل نفس للحمام دليل'

والدنيا تشتت الجمع وتفرق الأحباب، فلا ثقة في دوامها ولا استمرار لمسرآتها مادام الفناء نهايتها.

يقول أبو العتاهية (ت٢١١هـ):[٤٢]

أنساك محياك المماتا فطلبت في الدُنيا الثباتا

أو ثقت بالدُنيا واذ ت ترى جماعتها شتاتا

ولأبي تمام (ت٢٣١هـ) صور كثيرة توحي بجمال الحياة وألم الموت، وها هي الحياة عنده كالمرأة، لغز لا يحلُ وهذا هو سر التعلق بها يقول:(٤٣)

جفَ درُ الدنيا فقد أصبحت تكتال' أرواحنا بغير حساب
لو بدت سافراً أهينتْ ولكنْ شغف الخلق حسنها في النقاب

ولو أن هذا اللغز انحلَ غموضه وانكشفت معمياته فعرف الإنسان كل ما فيه تماماً لكانت الحياة سمجة تافهة لاتبعث على الأمل والطموح أو نشاط الروح البشرية.(٤٤)

ويتعجب أبو تمام من أن هذا الموت يقصد الرجال العظام الأقوياء، يطأ أعناقهم بميسم نافذ:(٤٥)

وكذا المنايا ما يطأن بمنسم إلا على أعناق أهل السُؤدد

ولكنه يستعذب الموت من أجل فتاته التي يهواها وهنا تلعب حالته النفسية الخاصة دورها في الحب يقول:(٤٦)

يستعذب الرعديد' فيها حتفه' فتراه' وهو المستميت' المعلم'

ومما أثار اهتمام أبي تمام زوال الحياة، ومسيرة الزمن نحو الموت، انه مدرك لطبيعة الزمن نراه يقول:(٤٧)

وما تبرح الأيام تحذف مدتي بعد حساب لا كعد حسابيا
لتمحو آثاري وتخلق جدتي وتخلي من ربعي بكره مكانيا
فقد أنست بالموت نفسي لأنني رأيت المنايا يخترمن حياتيا

وللشاعر محمود الوراق (ت٢٥٥هـ) وجهات نظر فاحصة في التأمُل في شؤون الحياة وهذه النظرات تكسوها قناعات تبدو كالوعظ يقول:(٤٨)

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الحنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدماً منها إلى الدُنيا بذنب واحد

وقد يكون للوعظ والإرشاد الذي اتخذه منهجاً في حياته الأثر البالغ في هذه الرقة وهذا الصدق الواضح في قوله:(٤٩)

تعصي الإ له وأنت تظهر حبه' هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته' إنَ المحبَ لمنْ يحبُ مطيع'

إن إحساس الشاعر بأنه' مهدد بالموت، ولطالما أقلقته آثار الزمن الجاري من شيب وضعف واستهلاك لجسمه وحواسه، لذا كان لابدَ أن يركز على أمر يضمن له البقاء والخلود وليس غير الشعر يهب الخلود، وكون الشعر أصيلاً يكتب له الخلود على مرَ الزمان.

وقد أدرك الشاعر أبو العلاء المعري (ت٤٤٩هـ) هذه الحقيقة، فبات شعره الغاية التي يعيش لأجلها، وجلُ ما فعله أنه واجه الموت وتحداه' بشعره مؤكداً ذلك:(٥٠)

لا خيل مثل قوافي الشعر جائلةً أبقى على الدَهر أعناقاً وآطالا
إن ينقل الحتف عن عاداته بطلاً فما تزال' معانيهن أبطالا

وتبدو ظاهرة ذكر الموت في شعر المعري جليَة للعيان، وتدلُ على حيرته وقلقه إزاء الفناء والموت، وإنه الهاجس الذي ظلَ يشغل تفكيره... وهو أكثر الشعراء الذين ذكروا الموت في شعرهم(٥١)، يقول:(٥٢)

فيا موت' زرْ إن الحياة ذميمةٌ ويا نفس' جدي إنَ دهرك هازل'

وخلاصة القول إن الشعراء العباسيين أسهبوا أكثر من غيرهم في خوض موضوع (الحياة والموت) بسبب طبيعة عصرهم فهو عصر مضطرب يعجُ بالمتناقضات ويبعث على القلق والرهبة والطمع والرغبة، وما كثرة أشعارهم في ذم الحياة وشتم الزمن إلا دليل على رفضهم لهذا العصر وسخطهم عليه.

يقول ابو العلاء مصورا الناس من وجهة نظره:(٥٣)

والناس شتى ولم يجمعهم غرض شد وحل واتهام و أنجاد

ياليل ضد ان قوم في الدجى سهر تهجدوك وقوم فيك هجاد

الهوامش :

(١) التفسير المعين للواعظين والمتعظين: ٥٨٤، وأيضاً: تاريخ بغداد: ٧/٤.
(٢) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: ١٣.
(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٦٥/١.
(٢) ديوان أبي تمام: ٢٥٤.
(٣) مقدمة ابن خلدون: ٥٣٥.
(٤) ديوان طرفة بن العبد: ٥٣.
(١) ديوان طرفة بن العبد: ٥٠.
(٢) ينظر: الصعلكة والفتوة في الإسلام: ١٣.
(٣) الكر: الحرب يعدها الشباب المتحمسون إحدى ملاذ الحياة.
(٤) لمزيد من المعلومات، ينظر (الحياة والموت في الشعر الجاهلي): ٣٣٧-٣٣٨.
(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ١٨٨، ١٤٤.
(٢) ينظر: (الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث): ١٢-١٤، (رسالة ماجستير). وأيضا التفاصيل في (هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي): ٢٠-٢١، (رسالة دكتوراه).
(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ١١٧.
(٢) ديوان امرئ القيس: ٣٤٥.
(٣) ديوان عنترة: ٢٠٧.
(١) شعر تأبط شراً: ١١٩.
(٢) الحماسة البصرية: ٦٣/١.
(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ٣١.
(١) ديوان طرفة بن العبد: ٣٤.
(٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ٩٢.
(٣) جمهرة أشعار العرب: ١٦١ (وقد أخل ديوانه من ذكر الأبيات، وكذا شرح المعلقات السبع للزوزني)، وأيضاً شرح ديوان علقمة، طرفة، عنترة: ١٧٢
(١) شرح ديوان الحماسة (القسم الأول): ١٧.
(٢) مقدمة ابن خلدون: ٥٤٧.
(٣) العنكبوت: ٦٤.
(٤) ينظر: هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي: ٢٢٤، (رسالة دكتوراه).
(٥) المؤمنون : ١٠،١١.
(٦) ينظر: هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي: ٢٢٥، (رسالة دكتوراه).
(١) الحياة والموت في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي: ١٠، (رسالة ماجستير).
(٢) ينظر: وصفهم في: البيان والتبين: ١٢٥/٢.
(٣) شعر الخوارج: ٤٢-٤٣.
(٤) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي: ٢٤٣.
(٥) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة: ١٨٦/٢.
(١) نقد الشعر: ٢٨.
(٢) شعر سابق البربري: ٨٨.

[٣] ينظر لمزيد من المعلومات: الحياة و الموت في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي: ١٣،١٦،٢١،٢٢، (رسالة ماجستير).
[١] ديوان النابغة الجعدي: ١٧٩ (ونسبت إلى أبي الشماخ الطائي (المعمرون و الوصايا: ١٣٥).
[٢] شعراء أمويون: ٤١/١
[١] قصة الإنسان: ٩٨.
[٢] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٦٠.
[١] لمزيد من المعلومات تراجع دراسة هشام فاضل الشيخ عيسى (الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنيين الثاني والثالث الهجريين)، (رسالة ماجستير).
[٢] ديوان بشار بن برد: ١٧٩.
[٣] أبو العتاهية (أشعاره وأخباره): ٧٤.
[١] ديوان أبي تمام: ٣١٤.
[٢] ينظر الصورة الفنية في شعر أبي تمام: ١٠٢.
[٣] ديوان أبي تمام: ٣٢٣.
[٤] نفسه: ٢٥١.
[٥] نفسه: ٤٣٠-٤٣١.
[١] ديوان محمود بن حسن الوراق: ٦١.
[٢] نفسه: ٩٠.
[٣] اللزوميات: ٢٠٦/٢.
[٤] الزمن في شعر أبي العلاء المعري: ١٠٤، (رسالة دكتوراه).
[٥] شروح سقط الزند (السفر الثاني): ١٩٥.
[١] اللزوميات: ٢٤٤/١.

المصادر و المراجع

١- القران الكريم .
٢- أبو العتاهية (أشعاره و أخباره) تحـ : د شكري فيصل . مط جامعة دمشق – دمشق ١٩٦٥ .
٣- الأسس الجمالية في النقد العربي د . عز الدين إسماعيل . ط ١ دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٥٥.
٤- الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني المط الشرقية – مصر (د . ت) .
٥- الإنسان و الزمان في الشعر الجاهلي د . حسين عبد الجليل يوسف . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٨ .

٦- البيان و التباين – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحـ : عبد السلام محمد هارون . ط ٥ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٥ .
٧- تاريخ بغداد – احمد بن علي البغدادي . دار الكتب العلمية – بيروت (د . ت) .
٨- التفسير المعين للواعظين و المتعظين : محمد هويدي . ط ٤ منشورات ذوي القربى – ١٤٢٣ هـ
٩- جمهرة أشعار العرب : أبو زيد القرشي – المكتبة التجارية الكبرى . مصر . ١٩٢٦ .
١٠- الحياة والموت في الشهر الجاهلي – د. مصطفى عبد اللطيف جياووك . دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٧ .
١١- ديوان أبي التمام شرح وتعليق د. شاهين عطية ط١ مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٨ .
١٢- ديوان امرئ ألقيس تحـ محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٣ . دار المعارف بمصر (د.ت) .
١٣- ديوان بشار بن برد جمعة وشرحه وعلق عليه الإمام محمد الطاهر بن عاشور – الجزائر ١٩٧٦.
١٤- ديوان طرفة بن العبد تحـ علي الجندي – دار الفكر العربي – القاهرة (د . ت) .
١٥- ديوان عنتر تحـ : محمد سعيد مولوي – المكتب الإسلامي – بيروت ١٩٧٠ .
١٦- ديوان محمود بن حسن الوراق . تحـ عدنان راغب ألعبيدي . مط دار البصري بغداد ١٩٦٩ .
١٧- ديوان النابغة الجعدي تحـ د . واضح الصمد . مط دار صادر – بيروت ١٩٩٨.
١٨- شرح ديوان الحماسة (القسم الأول) المرزوقي ط ٢ مط لجنة التأليف و الترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٧
١٩- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى تحـ د. احمد طلعت . ط ١ دار القاموسي الحديث – دار الفكر بيروت ١٩٦٨ .

٢٠- شرح ديوان علقمة ، طرفة ، عنترة تحـ نخبة الأدباء . دار الفكر للجميع بيروت ١٩٦٨ .
٢١- شرح سقط الزند (السفر الثاني) – الدار القومية للطباعة و النشر القاهرة ١٩٤٦ .
٢٢- شعر تأبط شرا تحـ سلمان داود القره غولي ، جبار تعبان جاسم مط الآداب في النجف الاشرف ١٩٧٣ .
٢٣- شعر الخوارج تحـ د . إحسان عباس . دار الثقافة – بيروت ١٩٢٣ .
٢٤- شعراء أمويون د . نوري حمودي القيسي . مؤسسة دار الكتب . جامعة الموصل – العراق ١٩٧٦ .
٢٥- شعر سابق البربري تحـ : د. بدر احمد ضيف . دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٨٧ .
٢٦- الصعلكة و الفتوة في الإسلام . سلسلة اقرأ رقم ١١١ : احمد أمين. دار المعارف – مصر ١٩٥٢ .
٢٧- الصورة الفنية في شعر أبي التمام د. عبد القادر الرباعي ط ١ . جامعة اليرموك – اربد ١٩٨٠
٢٨- العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده – ابن رشيق القيرواني . تحـ محمد محي الدين عبد الحميد ط ٥ . دار الجيل بيروت ١٩٨١ .
٢٩- قصة الإنسان – كارلتون كون – ترجمة توفيق حسين – مط اسعد – بغداد ١٩٦٥ .
٣٠- اللزوميات – أبو العلاء المعري . تحـ أمين عبد العزيز الخانجي – منشورات مكتبة الهلال – بيروت مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٤٢هـ
٣١- المعمورون و الوصايا : أبو حاتم السجتاني . تحـ عبد المنعم عامر . دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٦١ .
٣٢- مقدمة ابن خلدون : دار إحياء التراث العربي ط ٤ بيروت لبنان (د . ت) .
٣٣- نقد الشعر – قدامة بن جعفر – تحـ كمال مصطفى . ط ٣ مط الدوجي – مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٨ .

الرسائل الجامعية

١- الحياة والموت في الشعر العربي في صدر الإسلام و العصر الأموي – حميدة حسن نعمة (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) جامعة بغداد / كلية الآداب ٢٠٠١ م .

٢- الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين : هشام فاضل محمود .
(رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) – جامعة بغداد – كلية الآداب ١٩٨٤ م .

٣- الزمن في شعر أبي العلاء المعري – إبراهيم مسلم لفتة – (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة) جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد ١٩٩٧م.

٤- هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي عبد الرزاق خليفة . (أطروحة دكتوراه بالآلة الكاتبة) – جامعة بغداد – كلية الآداب ١٩٩٧ م .